بنعمة النجاة قاصدين التمتع بها والتلذذ لا غير على خلاف ما هو عادة المؤمنين المخلصين على الحقيقة إذا انجاهم الله أن يشكروا نعمة الله في إنجائهم ويجعلوا نعمة النجاة ذريعة إلى ازدياد الطاعة لا إلى التمتع، التلذذ وان تكون لام الأمر، وقراءة من قرأ وليتمتعوا بالسكون تشهد له ونحوه قوله تعالى: ﴿اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير﴾[1].

فإن قُلْتَ: كيف جاز أن يأمر الله تعالى بالكفر، وبان يعمل العصاة ما شاؤوا وهو ناه عن ذلك ومتوعد عليه؟ **قُلْتُ:** هو مجاز عن الخذلان والتخلية وإن ذلك الأمر متسخط إلى غاية ومثاله أن ترى الرجل قد عزم على أمر، وعندك أنّ ذلك الأمر خطأ وأنه يؤدي إلى ضرر عظيم، فتبالغ في نصحه واستنزاله عن رأيه فإذا لم تر منه إلا الإباء والتصميم حردت عليه وقلت: أنت وشأنك، وافعل ما شئت فلا تريد بهذا حقيقة الأمر وكيف والآمر بالشيء مريد له وأنت شديد الكراهة متحسر ولكنك كأنك تقول له: فإذا قد أبيت قبول النصيحة فأنت أهل ليقال: لك افعل ما شئت وتبعث عليه ليتبين لك إذا فعلت صحة رأى الناصح وفساد رأيك.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾.

كانت العرب حول مكة يغزوا بعضهم بعضًا ويتغاورون ويتناهبون وأهل مكة قارون آمنون فيها لا يغزون ولا يغار عليهم مع قلتهم وكثرة العرب فنكرهم الله هذه النعمة الخاصة عليهم وبخهم بأنهم يؤمنون بالباطل الذي هم عليه ومثل هذه النعمة المكشوفة الظاهرة وغيرها من النعم التي لا يقدر عليها إلا الله وحده مكفورة عندهم افتراؤهم على الله كذبًا زعمهم إن لله شريكا.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾.

وتكذيبهم بما جاءهم من الحق كفرهم بالرسول والكتاب وفي قوله ﴿لما جاءه﴾ تسفيه لهم يعني: لم يتلعثموا في تكذيبه وقت سمعوه ولم يفعلوا كما يفعل المراجيح العقول المثبتون في الأمور يسمعون الخبر فيستعملون فيه الروية والفكر ويستأنون إلى أن يضح لهم صدقه أو كذبه ﴿أليس﴾ تقرير لثوائهم في جهنم كقوله: ألستم خير من ركب المطايا، قال بعضهم: ولو كان استفهامًا ما أعطاه الخليفة مائة من الإبل وحقيقته أن الهمزة همزة الإنكار دخلت على النفي فرجع إلى معنى التقرير فهما وجهان أحدهما ألا يثوون في جهنم وألا يستوجبون الثواء فيها، وقد افتروا مثل هذا الكذب على الله وكذبوا بالحق هذا التكذيب والثاني ألم يصح عندهم أن في جهنم مثوى للكافرين حتى اجترؤا مثل هذه الجراة.

وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾.

أطلق المجاهدة ولم يقيدها بمفعول ليتناول كل ما يجب مجاهدته من النفس الأمّارة بالسوء والشيطان وأعداء الدين ﴿فينا﴾ في حقنا ومن أجلنا ولوجهنا خالصًا ﴿لنهدينهم سبلنا﴾ لنزيدنهم هداية إلى سبل الخير وتوفيقًا كقوله تعالى: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾[2] وعن أبي سليمان الداراني والذين جاهدوا فيما علموا لنهدينهم إلى ما لم يعلموا وعن بعضهم من عمل بما يعلم وفق لما لا يعلم وقيل: إن الذي نرى من جهلنا بما لا نعلم إنما هو من تقصيرنا فيما نعلم ﴿لمع المحسنين﴾ لناصرهم ومعينهم وعن رسول الله ﷺ من قرأ سورة العنكبوت كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل المؤمنين والمنافقين[3].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الروم مكية

الٓمٓ ﴿١﴾.

القراءة المشهور الكثيرة.

غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾.

﴿غلبت﴾ بضم الغين وسيغلبون بفتح الياء والأرض أرض العرب لأنّ الأرض المعهودة عند العرب أرضهم.

فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾.

والمعنى: غلبوا في أدنى أرض العرب منهم وهي أطراف الشام، أو أراد أرضهم على إنابة اللام مناب المضاف إليه أي: في أدنى أرضهم إلى عدوهم قال: مجاهد هي أرض الجزيرة وهي أدنى أرض الروم إلى فارس وعن ابن عباس رضي الله عنهما الأردن وفلسطين، وقرئ في أداني الأرض والبضع ما بين الثلاث إلى العشر عن الأصمعي وقيل: احتربت الروم وفارس بين أذرعات وبصري فغلبت فارس الروم، فبلغ الخبر مكة فشق على النبي ﷺ والمسلمين لأن فارس مجوس لا كتاب لهم والروم أهل الكتاب، وفرح المشركون وشمتوا وقالوا: أنتم النصارى أهل الكتاب ونحن وفارس أميون، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم ولنظهرنّ نحن عليكم فنزلت فقال لهم: أبو بكر رضي الله عنه لا يقرّر الله أعينكم فوالله لتظهرنّ الروم على فارس بعد بضع سنين فقال له: أبي بن خلف كذبت يا أبا فصيل

(1) سورة فصلت، الآية: 40.
(2) سورة محمد، الآية: 17.
(3) ذكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في التفسير، زيلعي 3/ 50.

اجعل بيننا أجلاً أناحبك عليه والمناحبة المرهنة فناحبه على عشر قلائص من كل واحد منهما وجعلا الأجل ثلاث سنين، فأخبر أبو بكر رضي الله عنه رسول الله ﷺ فقال:

﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾.

البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزايده في الخطر وماده في الأجل فجعلاها مائة قلوص إلى تسع سنين ومات أبي من جرح رسول الله وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية وذلك عند رأس سبع سنين[1] وقيل: كان النصر يوم بدر للفريقين فأخذ أبو بكر الخطر من ذرية أبي وجاء به إلى رسول الله ﷺ فقال: تصدق به وهذه الآية من الآيات البينة الشاهدة على صحة النبوّة وأن القرآن من عند الله لأنها إنباء عن علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، وقرئ غلبهم بسكون اللام والغلب والغلب مصدران كالجلب والجلب والحلب والحلب وقرئ ﴿غلبت الروم﴾ بالفتح وسيغلبون بالضم، ومعناه: أن الروم غلبوا على ريف الشام وسيغلبهم المسلمون في بضع سنين وعند انقضاء هذه المدّة أخذ المسلمون في جهاد الروم وإضافة غلبهم تختلف باختلاف القراءتين فهي في إحداهما إضافة المصدر إلى المفعول وفي الثانية إضافته إلى الفاعل ومثالهما محرّم عليكم إخراجهم ولن يخلف الله وعده.

فإن قُلْتَ: كيف صحت المناحبة وإنما هي قمار؟ **قُلْتُ:** عن قتادة رحمه الله أنه كان ذلك قبل تحريم القمار ومن مذهب أبي حنيفة ومحمد أن العقود الفاسدة من عقود الربا وغيرها جائزة في دار الحرب بين المسلمين والكفار، وقد احتجا على صحة ذلك بما عقده أبو بكر بينه وبين أبي بن خلف ﴿من قبل ومن بعد﴾ أي: في أوّل الوقتين وفي آخرهما حين غلبوا وحين يغلبون كأنه قيل من قبل كونهم غالبين وهو وقت كونهم مغلوبين ومن بعد كونهم مغلوبين وهو وقت كونهم غالبين يعني: أن كونهم مغلوبين أوّلاً وغالبين آخرًا ليس إلا بأمر الله وقضائه وتلك الأيام نداولها بين الناس، وقرئ: ﴿من قبل ومن بعد﴾ على الجرّ من غير تقدير مضاف إليه واقتطاعه كأنه قيل: قبلاً وبعدًا بمعنى: أوّلاً وآخرًا ﴿ويومئذٍ﴾ ويوم تغلب الروم على فارس ويحل ما وعده الله عزّ وجل من غلبتهم.

﴿بفرح المؤمنون بنصر الله﴾ وتغليبه من له كتاب على من لا كتاب له وغيظ من شمت بهم من كفار مكة وقيل: نصر الله هو إظهار صدق المؤمنين فيما أخبر به المشركين من غلبة الروم وقيل: نصر الله أنه ولى بعض الظالمين بعضًا وفرق بين كلمهم حتى تفانوا وتناقصوا وفل هؤلاء شوكة هؤلاء وفي ذلك قوّة للإسلام وعن أبي سعيد الخدري وافق ذلك يوم بدر وفي هذا اليوم نصر المؤمنين ﴿وهو العزيز الرحيم﴾ بنصر عليكم تارة، وبنصركم أخرى.

﴿وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾.

﴿وعد الله﴾ مصدر مؤكد كقولك لك على ألف درهم عرفًا لأنّ معناه أعترف لك بها اعترافًا ووعد الله ذلك وعدًا لأنّ ما سبقه في معنى وعد.

نمهم الله عزّ وجل بأنهم عقلاء في أمور الدنيا بله في أمر الدين وذلك أنهم كانوا أصحاب تجارات ومكاسب وعن الحسن بلغ من حذق أحدهم أنه يأخذ الدرهم فينقره بأصبعه، فيعلم أردئ هو أم جيد وقوله: ﴿يعلمون﴾ بدل من قوله: ﴿لا يعلمون﴾ وفي هذا الإبدال من النكتة أنه أبدله منه، وجعله بحيث يقوم مقامه ويسدّ مسدّه ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا وقوله: ﴿ظاهرًا من الحيوة الدنيا﴾ يفيد أن للدنيا ظاهرًا وباطنًا فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها والتنعم بملاذها وباطنها وحقيقتها أنها مجاز إلى الآخرة يتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة وفي تنكير الظاهر أنهم لا يعلمون إلا ظاهرًا واحدًا من جملة الظواهر[2]، وهم الثانية يجوز أن يكون مبتدأ و﴿غافلون﴾ خبره والجملة خبرهم الأولى وأن يكون تكريرًا للأولى وغافلون خبر الأولى وأية كانت فنكرها مناد على أنهم معدن الغفلة عن الآخرة ومقرّها ومعلمها، وأنها منهم تنبع وإليهم ترجع.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿في انفسهم﴾ يحتمل أن يكون ظرفًا كأنه قيل: أو لم يحدثوا التفكر في أنفسهم أي: في قلوبهم الفارغة من الفكر والتفكر لا يكون إلا في القلوب ولكنه زيادة تصوير لحال المتفكرين كقولك: اعتقده في قلبك وأضمره في نفسك، وأن يكون صلة للتفكر كقولك: تفكر في الأمر وأجال فيه فكره و﴿ما خلق﴾ متعلق بالقول المحذوف معناه، ﴿أولم يتفكروا﴾ فيقولوا: هذا القول وقيل: معناه فيعلموا لأنّ في الكلام دليلاً عليه ﴿إلا بالحق وأجل مسمى﴾ أي: ما خلقهما باطلاً وعبثًا بغير غرض صحيح وحكمة بالغة ولا لتبقى خالدة وإنما خلقها مقرونة بالحق مصحوبة بالحكمة وبتقدير أجل مسمى لا بد لها من أن تنتهي إليه

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: التفسير، باب: من سورة الروم، (الحديث: 3193).

(2) قال أحمد: وفي التنكير تقليل لمعلومهم وتقليله يقربه من النفي= حتى يطابق المبدل منه، وروي عن الحسن أنه قال: في تلاوته هذه الآية بلغ من صدق أحدهم في ظاهر الحياة الدنيا أنه ينقر الدينار بأصبعه، فيعلم أجيد هو أم رديء.

وهو قيام الساعة ووقت الحساب والثواب والعقاب ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أفحسبتم انما خلقناكم عبثًا وانكم إلينا لا ترجعون﴾[1] كيف سمى تركهم غير راجعين إليه عبثًا، والباء في قوله: ﴿إلا بالحق﴾ مثلها في قولك: دخلت عليه بثياب السفر واشترى الفرس بسرجه ولجامه تريد اشتراه وهو ملتبس بالسرج، واللجام غير منفك عنهما وكذلك المعنى ما خلقها إلا وهي ملتبسة بالحق مقترنة به.

فإن قُلْتَ: إذا جعلت في أنفسهم صلة للتفكر فما معناه؟ **قُلْتُ:** معناه: أو لم يتفكروا في أنفسهم التي هي أقرب إليهم من غيرها من المخلوقات وهم أعلم وأخبر بأحوالها منهم بأحوال ما عداها، فتدبروا ما أودعها الله ظاهرًا وباطنًا من غرائب الحكم الدالة على التدبير دون الإهمال وأنه لا بد لها من انتهاء إلى وقت يجازيها فيه الحكيم الذي دبر أمرها على الإحسان إحسانًا وعلى الإساءة مثلها حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق كذلك أمرها جار على الحكمة والتدبير وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى ذلك الوقت، والمراد بلقاء ربهم: الأجل المسمى.

أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾.

﴿أولم يسيروا﴾ تقرير لسيرهم في البلاد ونظرهم إلى آثار المدمرين من عاد وثمود وغيرهم من الأمم العاتية ثم أخذ يصف لهم أحوالهم وأنهم **﴿كانوا أشدّ منهم قوّة وأثاروا الأرض﴾** وحرثوها قال الله تعالى: ﴿لا ذلول تثير الأرض﴾[2] وقيل: لبقر الحرث المثيرة وقالوا: سمي ثورًا لإثارته الأرض وبقرة لأنها تبقرها أي: تشقها **﴿وعمروها﴾** يعني أولئك المدمرون **﴿أكثر مما عمروها﴾** من عمارة أهل مكة أهل وادي غير ذي زرع مالهم إثارة الأرض أصلاً ولا عمارة لها رأسًا فما هو إلا تهكم بهم وبضعف حالهم في دنياهم لأنّ معظم ما يستظهر به أهل الدنيا ويتباهون به أمر الدهقنة وهم أيضًا ضعاف القوى فقوله: **﴿كانوا أشدّ منهم قوّة﴾** أي: عاد وثمود وأضرابهم من هذا القبيل كقوله: ﴿أولم يروا أنّ الله الذي خلقهم هو أشدّ منهم قوّة﴾[3] وإن كان هذا أبلغ لأنه خالق القوى والقدر، فما كان تدميره إياهم ظلمًا لهم لأنّ حاله منافية للظلم ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث عملوا ما أوجب تدميرهم.

ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾.

قرئ: **﴿عاقبة﴾** بالنصب والرفع و**﴿السوأى﴾** تأنيث الأسوأ وهو الأقبح كما أنّ الحسنى تأنيث الأحسن والمعنى: أنهم عوقبوا في الدنيا بالدمار، ثم كانت عاقبتهم السوأى إلا أنه وضع المظهر موضع المضمر أي: العقوبة التي هي أسوأ العقوبات في الآخرة وهي جهنم التي أعدّت للكافرين و**﴿أن كذبوا﴾** بمعنى لأن كذبوا ويجوز أن يكون بمعنى أي: لأنه إذا كان تفسير الإساءة التكذيب والاستهزاء كانت في معنى القول نحو نادي وكتب وما أشبه ذلك ووجه آخر وهو أن يكون أساؤا السوأى بمعنى اقترفوا الخطيئة التي هي أسوأ الخطايا وأن كذبوا عطف بيان لها وخبر كان محذوف كما يحذف جواب لما ولو إرادة الإبهام.

ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾.

﴿ثم إليه ترجعون﴾ أي: إلى ثوابه وعقابه، وقرئ بالتاء والياء الإبلاس أي: يبقى بائسًا ساكنًا متحيرًا يقال: ناظرته فأبلس إذا لم ينبس ويئس من أن يحتجّ ومنه الناقة المبلاس التي لا ترغو.

وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾.

وقرئ: **﴿يبلس﴾** بفتح اللام من أبلسه إذا أسكته.

وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾.

﴿من شركائهم﴾ من الذين عبدوهم من دون الله **﴿وكانوا بشركائهم كافرين﴾** أي: يكفرون بإلهيتهم ويجحدونها أو وكانوا في الدنيا كافرين بسببهم، وكتبوا شفعواء في المصحف بواو قبل الألف كما كتب علماء بني إسرائيل وكذلك كتبت السوأى بألف قبل الياء إثباتًا للهمزة على صورة الحرف الذي منه حركتها.

وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾.

الضمير في **﴿يتفرّقون﴾** للمسلمين والكافرين لدلالة ما بعده عليه وعن الحسن رضي الله عنه هو تفرّق المسلمين والكافرين هؤلاء في عليين وهؤلاء في أسفل السافلين، وعن قتادة رضي الله عنه فرقة لا اجتماع بعدها.

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾.

﴿في روضة﴾ في بستان وهي الجنة والتنكير لإبهام أمرها وتفخيمه والروضة عند العرب كل أرض ذات نبات وماء وفي أمثالهم أحسن من بيضة في روضة يريدون بيضة النعامة **﴿يحبرون﴾** يسرون، يقال حبره: إذا سرّه سرورًا تهلل له وجهه وظهر فيه أثره، ثم اختلفت فيه الأقاويل لاحتماله وجوه جميع المسار فعن مجاهد

(1) سورة المؤمنون، الآية: 115.

(2) سورة البقرة، الآية: 71.

(3) سورة فصلت، الآية: 15.

رضي الله عنه يكرمون، وعن قتادة ينعمون وعن ابن كيسان يحلون وعن أبي بكر بن عياش التيجان على رؤوسهم، وعن وكيع السماع في الجنة وعن النبيّ ﷺ أنه ذكر الجنة وما فيها من النعيم[1] وفي آخر القوم أعرابيّ، فقال: يا رسول الله هل في الجنة من سماع؟ قال: «نعم يا أعرابي إنّ في الجنة لنهرًا حافتاه الأبكار من كل بيضاء خوصانية يتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها قط فذلك أفضل نعيم الجنة» قال الراوي: فسألت أبا الدرداء بم يتغنين قال: بالتسبيح، وروي: إنّ في الجنة لأشجارًا عليها أجراس من فضة فإذا أراد أهل الجنة السماع بعث الله ريحًا من تحت العرش فتقع في تلك الأشجار فتحرّك تلك الأجراس بأصوات لو سمعها أهل الدنيا لماتوا طربًا[2].

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾.

﴿محضرون﴾ لا يغيبون عنه، ولا يخفف عنهم كقوله: ﴿وما هم بخارجين منها﴾[3] لا يفترّ عنهم لما ذكر الوعد والوعيد أتبعه ذكر ما يوصل إلى الوعد، وينجي من الوعيد والمراد بالتسبيح ظاهره الذي هو تنزيه الله من السوء والثناء عليه بالخير في هذه الأوقات لما يتجدّد فيها من نعمة الله الظاهرة، وقيل: الصلاة وقيل: لابن عباس رضي الله عنهما هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال: نعم.

فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾.

وتلا هذه الآية ﴿تمسون﴾ صلاتا المغرب والعشاء ﴿وتصبحون﴾ صلاة الفجر ﴿وعشيًا﴾ صلاة العصر.

و﴿تظهرون﴾ صلاة الظهر، وقوله: ﴿وعشيًا﴾ متصل بقوله: ﴿حين تمسون﴾ وقوله: ﴿وله الحمد في السمٰوات والأرض﴾ اعتراض بينهما ومعناه: إنّ على المميزين كلهم من أهل السموات والأرض أن يحمدوه.

فإن قُلْتَ: لم ذهب الحسن رحمه الله إلى أنّ هذه الآية مدنية! **قُلْتُ:** لأنه كان يقول: فرضت الصلوات الخمس بالمدينة وكان الواجب بمكة ركعتين في غير وقت معلوم، والقول الأكثر أنّ الخمس إنما فرضت بمكة وعن عائشة رضي الله عنها فرضت الصلاة ركعتين فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أقرّت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر[4] وعن رسول الله ﷺ: «من سرّه أن يكال له بالقفيز الأوفى فليقل ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون﴾[5]» الآية، وعنه عليه السلام: «من قال حين يصبح: فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون إلى قوله: ﴿وكذلك تخرجون﴾[6] أدرك ما فاته في يومه ومن قالها: حين يمسي أدرك ما فاته في ليلته».[7] وفي قراءة عكرمة حينًا تمسون وحينًا تصبحون والمعنى تمسون فيه وتصبحون فيه، كقوله: يومًا لا تجزى نفس عن نفس شيئًا بمعنى فيه.

يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾.

﴿الحيّ من الميت﴾ الطائر من البيضة و﴿الميت من الحيّ﴾ البيضة من الطائر، وإحياء الأرض إخراج النبات منها ﴿وكذلك تخرجون﴾ ومثل ذلك الإخراج تخرجون من القبور وتبعثون، والمعنى: أنّ الإبداء والإعادة متساويان في قدرة من هو قادر على الطرد والعكس من إخراج الميت من الحيّ وإخراج الحيّ من الميت وإحياء الميت وإماتة الحيّ، وقرئ الميت بالتشديد وتخرجون بفتح التاء.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾.

﴿خلقكم من تراب﴾ لأنه خلق أصلهم منه و﴿إذا﴾ للمفاجأة وتقديره ثم فاجأتم وقت كونكم بشرًا منتشرين في الأرض كقوله: وبثّ منهما رجالاً كثيرًا ونساء.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾.

﴿من أنفسكم أزواجًا﴾ لأنّ حوّاء خلقت من ضلع آدم عليه السلام والنساء بعدها خلقن من أصلاب الرجال أو من شكل أنفسكم وجنسها لا من جنس آخر وذلك لما بين الاثنين من جنس واحد من الألف، والسكون وما بين الجنسين المختلفين من التنافر ﴿وجعل بينكم﴾ التواد والتراحم بعصمة الزواج بعد أن لم تكن بينكم سابقة معرفة ولا لقاء ولا سبب يوجب التعاطف من قرابة، أو رحم وعن الحسن ري الله عنه المودّة كناية عن الجماع والرحمة عن الولد كما قال: ورحمة منا وقال: ذكر رحمة ربك عبده، ويقال: سكن إليه إذا مال إليه كقولهم انقطع إليه واطمأن إليه ومنه السكن وهو الألف المسكون إليه فعل بمعنى مفعول وقيل: إنّ المودّة والرحمة من قبل الله وإنّ الفرك من قبل الشيطان.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ

---

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره وابن عدي في الكامل، زيلعي 3/55.
(2) قال الزيلعي غريب، ورواه الثعلبي، 3/56.
(3) سورة المائدة، الآية: 37.
(4) أخرجه البخاري في كتاب: الصلاة، باب: كيف فرضت الصلاة في الإسراء، الحديث: (350)، ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين =
= وقصرها، باب: صلاة المسافرين، الحديث: (1 ـ 685).
(5) ذكره الثعلبي في تفسيره، زيلعي 3/57.
(6) سورة الروم، الآية: 19.
(7) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: ما يقول إذا أصبح، (الحديث: 5076).

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾.

الألسنة اللغات أو أجناس النطق وأشكاله خالف عزّ وعلا بين هذه الأشياء حتى لا تكاد تسمع منطقين متفقين في همس واحد ولا جهارة ولا حدّة ولا رخاوة ولا فصاحة ولا لكنة، ولا نظم ولا أسلوب ولا غير ذلك من صفات النطق وأحواله وكذلك الصور وتخطيطها والألوان وتنويعها ولاختلاف ذلك وقع التعارف وإلا فلو انفقت، وتشاكلت وكانت ضربًا واحدًا لوقع التجاهل والالتباس ولتعطلت مصالح كثيرة وربما رأيت توأمين يشتبهان في الحلية فيعروك الخطأ في التمييز بينهما وتعرف حكمة الله في المخالفة بين الحليّ وفي ذلك آية بينة حيث ولدوا من أب واحد وفرّعوا من أصل فذوهم على الكثرة التي لا يعلمها إلا الله مختلفون متفاوتون، وقرئ للعالمين بفتح اللام وكسرها ويشهد للكسر قوله تعالى: ﴿وما يعقلها إلا العالمون﴾، هذا من باب اللفّ وترتيبه.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾.

ومن آياته منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار إلا أنه فصل بين القرينين الأوّلين بالقرينين الآخرين لأنهما زمانان والزمان والواقع فيه بشيء واحد مع إعانة اللفّ على الاتحاد ويجوز أن يراد منامكم في الزمانين وابتغاءكم فيهما والظاهر هو الأوّل لتكرّره في القرآن وأسدّ المعاني ما دل عليه القرآن يسمعونه بالآذان الواعية.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾.

في ﴿يريكم﴾ وجهان إضمار أن وإنزال الفعل منزلة المصدر وبهما فسر المثل تسمع بالمعيدي خير من أن تراه وقول القائل: ما تشاء فقلت ألهو، إلى الإصباح آثر ذي أثير ﴿خوفًا﴾ من الصاعقة أو من الإخلاف ﴿وطمعًا﴾ في الغيث وقيل: خوفًا للمسافر وطمعًا للحاضر وهما منصوبان على المفعول له.

فإن قُلْتَ[1]: من حق المفعول له أن يكون فعلاً لفاعل الفعل المعلل والخوف والطمع ليسا كذلك! قُلْتُ: فيه وجهان أحدهما أن المفعولين فاعلون في المعنى لأنهم رائون، فكأنه قيل: يجعلكم رائين البرق خوفًا وطمعًا والثاني أن يكون على تقدير حذف المضاف أي: إرادة خوف وإرادة طمع فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، ويجوز أن يكونا حالين أي: خائفين وطامعين. وقرئ ينزل بالتشديد.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾.

ومن آياته قيام السموات والأرض واستمساكهما بغير عمد ﴿بأمره﴾ أي بقوله: كونا قائمتين والمراد بإقامته لهما: إرادته لكونهما على صفة القيام دون الزوال وقوله ﴿إذا دعاكم﴾ بمنزلة قوله: يريكم في إيقاع الجملة موقع المفرد على المعنى كأنه قال: ومن آياته قيام السموات والأرض، ثم خروج الموتى من القبور إذا دعاهم دعوة واحدة يا أهل القبور اخرجوا والمراد سرعة وجود ذلك من غير توقف ولا تلبث كما يجيب الداعي المطاع مدعوّه كما قال القائل:

دعوت كليبًا دعوة فكأنما ... دعوت به ابن الطود أو هو أسرع

يريد بأن الطود الصدى، أو الحجر إذا تدهدى وإنما عطف هذا على قيام السموات والأرض بثم بيانًا لعظم ما يكون من ذلك الأمر واقتداره على مثله وهو أن يقول: يا أهل القبور قوموا فلا تبقى نسمة من الأوّلين والآخرين إلا قامت تنظر كما قال تعالى: ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، قولك: دعوته من مكان كذا كما يجوز أن يكون مكانك يجوز أن يكون مكان صاحبك تقول: دعوت زيدًا من أعلى الجبل فنزل عليّ ودعوته من أسفل الوادي فطلع إليّ.

فإن قُلْتَ: بم تعلق ﴿من الأرض﴾ أبالفعل أم بالمصدر! قُلْتُ: هيهات إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل.

فإن قُلْتَ: ما الفرق بين ﴿إذا﴾ و﴿إذا﴾؟ قُلْتُ: الأولى للشرط والثانية للمفاجأة وهي تنوب مناب الفاء في جواب الشرط، وقرئ تخرجون بضم التاء وفتحها.

وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾.

﴿قانتون﴾ منقادون لوجود أفعاله فيهم لا يمتنعون عليه.

وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾.

﴿وهو أهون عليه﴾ فيما يجب عندكم وينقاس على أصولكم ويقتضيه معقولكم لأنّ من أعاد منكم صنعة شيء كانت أسهل عليه وأهون من إنشائها، وتعتذرون للصانع إذا خطئ في بعض ما ينشئه بقولكم: أوّل الغزو أخرق وتسمون الماهر في صناعته معاودًا تعنون أنه عاودها كرّة بعد أخرى حتى مرن عليها وهانت عليه.

---

(1) قال أحمد: الخوف والطمع من جملة مخلوقات الله تعالى وآثار قدرته، وحينئذ يلزم اجتماع شرائط النصب فيهما، وهي كونهما مصدرين ومقارنين في الوجود، والفاعل الخالق واحد، فلا بدّ من التنبيه على تخريج النصب على غير هذا الوجه، فنقول معنى قول النحاة في المفعول له لا بدّ وأن يكون فعل الفاعل، أي: ولا بدّ أن = يكون الفاعل متصفاً به مثاله، إذا قلت: جئتك إكراماً لك، فقد وصفت نفسك بالإكرام، فقلت: في المعنى جئتك مكرماً لك، والله تعالى وإن خلق الخوف والطمع لعباده، إلا أنه مقدّس عن الاتصاف بهما، فمن ثم احتيج إلى تأويل النصب على المذهبين جميعاً. والله أعلم.

فإن قُلْتَ: لم أخرت الصلة في قوله: ﴿وهو أهون عليه﴾ وقدّمت في قوله: ﴿هو عليّ هين﴾ هناك قصد الاختصاص وهو مجزه فقيل: هو عليّ هين وإن كان مستصعبًا عندكم أن يولد بين هم وعاقر وأما ههنا، فلا معنى للاختصاص كيف والأمر مبني على ما يعقلون من أنّ الإعادة أسهل من الابتداء فلو قدمت الصلة لتغير المعنى[1].

فإن قُلْتَ: ما بال الإعادة استعظمت في قوله: ﴿ثم إذا دعاكم﴾ حتى كانها فضلت على قيام السموات والأرض بامره، ثم هونت بعد ذلك! **قُلْتُ:** الإعادة في نفسها عظيمة ولكنها هونت بالقياس إلى الإنشاء[2] وقيل: الضمير في عليه للخلق ومعناه: أنّ البعث أهون على الخلق من الإنشاء؛ لأن تكوينه في حد الاستحكام والتمام أهون عليه وأقل تعبًا وكبدًا من أن يتنقل في أحوال ويندرج فيها إلى أن يبلغ ذلك الحد وقيل: الأهون بمعنى الهين ووجه آخر وهو أن الإنشاء من قبيل التفضل الذي يتخير فيه الفاعل بين أن يفعله وأن لا يفعله والإعادة من قبيل الواجب الذي لا بدّ له من فعله لأنها لجزاء الأعمال، وجزاؤها واجب والأفعال إما محال والمحال ممتنع أصلاً خارج عن المقدور وأما ما يصرف الحكيم عن فعله صارف وهو القبيح وهو رديف المحال لأنّ الصارف يمنع وجوه الفعل كما تمنعه الإحالة وإما تفضل والتفضل حالة بين بين للفاعل أن يفعله، وأن لا يفعله وإما واجب لا بدّ من فعله ولا سبيل إلى الإخلال به، فكان الواجب أبعد الأفعال من الامتناع وأقربها من الحصول فلما كانت الإعادة من قبيل الواجب كانت أبعد الأفعال من الامتناع، وإذا كانت أبعدها من الامتناع كانت أدخلها في التأتي والتسهل فكانت أهون منها وإذا كانت أهون منها كانت أهون من الإنشاء ﴿وله المثل الأعلى﴾ أي: الوصف الأعلى الذي ليس لغيره مثله قد عرف به، ووصف في السموات والأرض على السنة الخلائق والسنة الدلائل وهو أنه القادر الذي لا يعجز عن شيء من إنشاء وإعادة وغيرهما من المقدورات، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي: القاهر لكل مقدور الحكيم الذي يجري كل فعل على قضايا حكمته وعلمه وعن مجاهد المثل الأعلى قول: لا إله إلا الله ومعناه وله الوصف الأعلى الذي هو الوصف بالوحدانية ويعضده.

ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾.

قوله تعالى: ﴿ضرب لكم مثلاً من أنفسكم﴾، وقال: الزجاج وله المثل الأعلى في السموات والأرض أي قوله تعالى: ﴿وهو أهون عليه﴾ قد ضربه لكم مثلاً فيما يصعب ويسهل يريد التفسير الأوّل.

فإن قُلْتَ: أي فرق بين ﴿من﴾ الأولى والثانية والثالثة في قوله تعالى: ﴿من أنفسكم﴾ ﴿مما ملكت أيمانكم من شركاء﴾؟ **قُلْتُ:** الأولى للابتداء كانه قال: أخذ مثلاً وانتزعه من أقرب شيء منكم وهي أنفسكم ولم يبعد والثانية للتبعيض والثالثة مزيدة لتأكيد الاستفهام الجاري مجرى النفي ومعناه: هل ترضون لأنفسكم وعبيدكم أمثالكم بشر كبشر وعبيد كعبيد أن يشارككم بعضهم ﴿فيما رزقناكم﴾ من الأموال وغيرها تكونون أنتم وهم فيه على السواء من غير تفضلة بين حرّ وعبد[3]، تهابون أن تستبدوا بتصرف دونهم وأن تفتاتوا بتدبير عليهم كما يهاب بعضكم بعضًا من الأحرار، فإذا لم ترضوا بذلك لأنفسكم فكيف ترضون لرب الأرباب ومالك الأحرار والعبيد أن تجعلوا بعض عبيده له شركاء ﴿كذلك﴾ أي: مثل هذا التفصيل ﴿نفصل الآيات﴾ أي: نبينها لأنّ التمثيل مما يكشف المعاني ويوضحها لأنه بمنزلة التصوير، والتشكيل لها ألا ترى كيف صور الشرك بالصورة المشوهة.

بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾.

﴿الذين ظلموا﴾ أي: أشركوا كقوله تعالى: ﴿إنّ الشرك

---

(1) قال أحمد: كلام نفيس يستحق أن يكتب بذوب التبر لا بالحبر، وإنما يلقى الاختصاص من تقديم ما حقه أن يؤخر، وقد علمت مذهبه في مثل ذلك. قال: في تقرير معنى قوله: وهو أهون عليه الأفعال، إما ممتنع عقلاً لذاته، وإما ممتنع لصارف يصرف الحكيم عن فعله، وإما تفضل يتخير الحكيم فيه بين أن يفعل وأن لا، وإما واجب على الحكيم أن يفعله فالإنشاء الأوّل من قبيل التفضل، أما الإعادة فواجبة على الله تعالى لأجل الجزاء، فلما كانت واجبة كانت أبعد الأفعال عن الممتنع، فلذلك وصفت بالتسهيل، وكانت أهون من الإنشاء.

(2) قال أحمد: إنما يلقى في السؤال تعظيم الإعادة من عطفها بثم إيذاناً بتغاير مرتبتها وعلو شانها، وقوله في الجواب: إنها هونت بالنسبة إلى الإنشاء لا يخلص، فإنّ الإعادة ذكرت ههنا عقيب قيام السموات والأرض بأمره وقيامهما ابتداء، وإنشاء أعظم من الإعادة، فيلزم تعظيم الإعادة بالنسبة إلى ما عطف عليه عن = الإنشاء، ويعود الإشكال، والمخلص والله أعلم جعل ثم على بابها لتراخي الزمان لا لتراخي المراتب، وإن سلم أنها لتراخي المراتب فعلى أن تكون مرتبة المعطوف عليه العليا، ومرتبة المعطوف هي الدنيا، وذلك نادر في مجيئها لتراخي المراتب، فإنّ المعطوف حينئذ في أكثر المواضع أرفع درجة من المعطوف عليه والله أعلم.

(3) قال أحمد: لقد ضل وصد عن السبيل فلا نوافقه ولا نرافقه، والحق أن لا واجب على الله تعالى، وكل ما نكره في هذا الفصل نزغات قدرية على أنها أيضاً غير مستقيمة على أصولهم المجتثة، فإنّ مقتضاها وجوب الإنشاء في الحكمة إذ لولا مصلحة اقتضت الإنشاء لما وقع، وتلك المصلحة توجب متعلقها، فقد وضح أنّ المصنف لا إلى معالي السنة رقي، ولا في حضيض الاعتزال بقي فللّه العصمة.

لظلم عظيم﴾[1] ﴿بغير علم﴾ أي: اتبعوا أهواءهم جاهلين؛ لأنّ العالم إذا ركب هواه ربما ردعه علمه وكفه، وأما الجاهل فهيم على وجهه كالهيمة لا يكفه شيء ﴿من أضلّ الله﴾ من خذله ولم يلطف به لعلمه أنه ممن لا لطف له فمن يقدر على هداية مثله، وقوله ﴿وما لهم من ناصرين﴾ دليل على أن المراد بالإضلال الخذلان.

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾.

﴿فأقم وجهك للدين﴾ فقوم وجهك له وعدله غير ملتفت عنه يمينًا ولا شمالاً، وهو تمثيل لإقباله على الدين واستقامته عليه وثباته واهتمامه بأسبابه، فإنّ من اهتم بالشيء عقد عليه طرفه وسدّد إليه نظره وقوّم له وجهه مقبلاً به عليه ﴿حنيفًا﴾ حال من المأمور أو من الدين ﴿فطرت الله﴾ أي: الزموا فطرة الله، أو عليكم فطرة الله وإنما أضمرته على خطاب الجماعة لقوله.

۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾.

﴿منيبين إليه﴾ ومنيبين حال من الضمير في الزموا وقوله: ﴿واتقوه وأقيموا﴾ ﴿ولا تكونوا﴾ معطوف على هذا المضمر والفطرة الخلقة ألا ترى إلى قوله: ﴿لا تبديل لخلق الله﴾، والمعنى: أنه خلقهم قابلين للتوحيد ودين الإسلام غير نائين عنه ولا منكرين له لكونه مجاوبًا للعقل مساوقًا للنظر الصحيح حتى لو تركوا لما اختاروا عليه دينًا آخر ومن غوى منهم فبإغواء شياطين الإنس والجن ومنه قوله ﷺ: «كل عبادي خلقت حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم وأمروهم أن يشركوا بي غيري»[2] وقوله عليه السلام: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهوّدانه وينصّرانه»[3] ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ أي: ما ينبغي أن تبدل تلك الفطرة أو تغير.

فإن قُلْتَ: لم وحد الخطاب أولاً ثم جمع؟ قُلْتُ: خوطب رسول الله ﷺ أولاً وخطاب الرسول خطاب لأمته مع ما فيه من التعظيم للإمام، ثم جمع بعد ذلك للبيان والتلخيص.

مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾.

﴿من الذين﴾ بدل من المشركين ﴿فرّقوا دينهم﴾ تركوا دين الإسلام، وقرئ ﴿فرقوا دينهم﴾ بالتشديد أي: جعلوه أديانًا مختلفة لاختلاف أهوائهم ﴿وكانوا شيعًا﴾ فرقًا كل واحدة تشايع إمامها الذي أضلها ﴿كل حزب﴾ منهم فرح بمذهبه مسرور يحسب باطله حقًا ويجوز أن يكون من الذين منقطعًا مما قبله، ومعناه: من المفارقين دينهم كل حزب فرحين بما لديهم ولكنه رفع فرحون على الوصف لكل كقوله: وكل خليل غير هاضم نفسه.

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾.

الضر الشدّة من هزال أو مرض أو قحط أو غير ذلك، والرحمة الخلاص من الشدّة واللام في.

لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾.

﴿ليكفروا﴾ مجاز مثلها في ليكون لهم عدوًا ﴿فتمتعوا﴾ نظير اعملوا ما شئتم ﴿فسوف تعلمون﴾ وبال تمتعكم وقرأ ابن مسعود وليتمتعوا.

أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾.

السلطان الحجة وتكلمه مجاز كما تقول: كتابه ناطق بكذا وهذا مما نطق به القرآن ومعناه الدلالة والشهادة كأنه قال: فهو يشهد بشركهم وبصحته، وما في ﴿بما كانوا﴾ مصدرية أي بكونهم بالله يشركون، ويجوز أن تكون موصولة ويرجع الضمير إليها ومعناه: فهو يتكلم بالأمر الذي بسببه يشركون ويحتمل أن يكون المعنى أم أنزلنا عليهم ذا سلطان أي: ملكًا معه برهان فذلك الملك يتكلم بالبرهان الذي بسببه يشركون.

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ۖ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾.

﴿وإذا أذقنا الناس رحمة﴾ أي: نعمة من مطر أو سعة أو صحة ﴿فرحوا بها وإن تصبهم سيئة﴾ أي: بلاء من جدب أو ضيق أو مرض والسبب فيها شؤم معاصيهم قنطوا من الرحمة.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾.

ثم أنكر عليهم بأنهم قد علموا أنه هو الباسط القابض فما لهم يقنطون من رحمته وما لهم لا يرجعون إليه تائبين من المعاصي التي عوقبوا بالشدّة من أجلها حتى يعيد إليهم رحمته.

فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾.

حق ذي القربى صلة الرحم، وحق المسكين وابن

---

(1) سورة لقمان، الآية: 13.

(2) أخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، (الحديث: 63 ـ 2865).

(3) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه (حديث: 1358)، ومسلم في كتاب: القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة، (الحديث: 22 ـ 2658).

السبيل نصيبهما من الصدقة المسماة لهما وقد احتج أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية في وجوب النفقة للمحارم إذا كانوا محتاجين عاجزين عن الكسب وعند الشافعي رحمه الله لا نفقة بالقرابة إلا على الولد والوالدين قاس سائر القرابات على ابن العم لأنه لا ولاد بينهم.

فإن قُلْتَ: كيف تعلق قوله ﴿**فآت ذا القربى**﴾ بما قبله حتى جيء بالفاء **قُلْتُ:** لما ذكر أنّ السيئة أصابتهم بما قدّمت أيديهم أتبعه ذكر ما يجب أن يفعل، وما يجب أن يترك ﴿**يريدون وجه الله**﴾ يحتمل أن يراد بوجهه ذاته أو جهته وجانبه أي: يقصدون بمعروفهم إياه خالصًا وحقه كقوله تعالى: ﴿إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى﴾، أو يقصدون جهة التقرّب إلى الله لا جهة أخرى والمعنيان متقاربان ولكن الطريقة مختلفة.

وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾.

هذه الآية في معنى قوله تعالى: ﴿يمحق الله الربا ويربي الصدقات سواء بسواء﴾[1] يريد وما أعطيتم أكلة الربا ﴿**من ربا ليربوا في**﴾ أموالهم ليزيد ويزكو في أموالهم، فلا يزكو عند الله ولا يبارك فيه ﴿**وما آتيتم من زكاة**﴾ أي صدقة تبتغون به وجهه خالصًا لا تطلبون به مكافأة ولا رياء وسمعة ﴿**فأولئك هم المضعفون**﴾ ذوو الإضعاف من الحسنات، ونظير المضعف المقوي والموسر لذي القوّة واليسار، وقرئ بفتح العين وقيل: نزلت في ثقيف وكانوا يربون وقيل: المراد أن يهب الرجل للرجل، أو يهدي له ليعوضه أكثر مما وهب، أو أهدى فليست تلك الزيادة بحرام ولكن المعوض لا يثاب على تلك الزيادة وقالوا الربا ربوان فالحرام كل قرض يؤخذ فيه أكثر منه، أو يجر منفعة والذي ليس بحرام أن يستدعي بهبته أو بهدية أكثر منها وفي الحديث المستغزر يثاب من هبته، وقرئ وما أتيتم من ربا بمعنى: وما غشيتموه أو رهقتموه من إعطاء ربا وقرئ لتربوا أي: لتزيدوا في أموالهم كقوله تعالى: ﴿ويربي الصدقات﴾ أي: يزيدها وقوله تعالى: ﴿**فأولئك هم المضعفون**﴾ التفات حسن كأنه قال لملائكته وخواص خلقه، فأولئك الذين يريدون وجه الله بصدقاتهم هم المضعفون، فهو أمدح لهم من أن يقول: فأنتم المضعفون والمعنى المضعفون به لأنه لا بد من ضمير يرجع إلى ماء ووجه آخر وهو أن يكون تقديره، فمؤتوه أولئك هم المضعفون والحذف لما في الكلام من الدليل عليه وهذا أسهل مأخذًا والأوّل أملأ بالفائدة.

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾.

﴿**الله**﴾ مبتدأ وخبره ﴿**الذي خلقكم**﴾ أي الله هو فاعل هذه الأفعال الخاصة التي لا يقدر على شيء منها أحد غيره، ثم قال ﴿**هل من شركائكم**﴾ الذين اتخذتموهم أنداداً له من الأصنام وغيرها ﴿**من يفعل**﴾ شيئًا قط من تلك الأفعال حتى يصح ما ذهبتم إليه، ثم استبعد حاله من حال شركائهم ويجوز أن يكون الذي خلقكم صفة للمبتدأ والخبر هل من شركائكم، وقوله ﴿**من ذلكم**﴾ هو الذي ربط الجملة بالمبتدأ؛ لأنّ معناه من أفعاله ومن الأولى والثانية والثالثة كل واحدة منهنّ مستقلة بتأكيد لتعجيز شركائهم وتجهيل عبدتهم.

ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾.

﴿**الفساد في البر والبحر**﴾ نحو الجدب والقحط وقلة الريع في الزراعات والربح في التجارات ووقوع الموتان في الناس والدواب وكثرة الحرق والغرق وإخفاق الصيادين والغاصة ومحق البركات من كل شيء وقلة المنافع في الجملة وكثرة المضار، وعن ابن عباس أجدبت الأرض وانقطعت مادة البحر وقالوا: إذا انقطع القطر عميت دواب البحر وعن الحسن أنّ المراد بالبحر مدن البحر وقراه التي على شاطئه وعن عكرمة العرب تسمى الأمصار البحار، وقرئ في البر والبحور ﴿**بما كسبت أيدي الناس**﴾ بسبب معاصيهم وذنوبهم كقوله تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم﴾، وعن ابن عباس ظهر الفساد في البر بقتل ابن آدم أخاه وفي البحر بأن جلندي كان يأخذ كل سفينة غصبًا، وعن قتادة كان ذلك قبل البعث فلما بعث رسول الله ﷺ رجع راجعون عن الضلال والظلم، ويجوز أن يريد ظهور الشر والمعاصي بكسب الناس ذلك.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: ﴿**ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون**﴾! **قُلْتُ:** أمّا على التفسير الأوّل فظاهر وهو أنّ الله قد أفسد أسباب دنياهم ومحقها ليذيقهم وبال بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة لعلهم يرجعون عما هم عليه، وأمّا على الثاني فاللام مجاز على معنى أنّ ظهور الشرور بسببهم مما استوجبوا به أن يذيقهم الله وبال أعمالهم إرادة الرجوع فكأنهم إنما أفسدوا وتسببوا لفشو المعاصي في الأرض لأجل ذلك، وقرئ لنذيقهم بالنون.

قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾.

ثم أكد تسبب المعاصي لغضب الله ونكاله حيث أمرهم بأن يسيروا في الأرض فينظروا كيف أهلك الله الأمم وأذاقهم سوء العاقبة لمعاصيهم ودلّ بقوله: ﴿**كان أكثرهم مشركين**﴾ على أنّ الشرك وحده لم يكن سبب تدميرهم،

(1) سورة البقرة، الآية: 276.

وأنّ ما دونه من المعاصي يكون سببًا لذلك.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾.

القيم البليغ الاستقامة الذي لا يتأتى فيه عوج ﴿من الله﴾ إمّا أن يتعلق بيأتي فيكون المعنى من قبل أن يأتي من الله يوم لا يردّه أحد كقوله تعالى: ﴿فلا يستطيعون﴾ ردّها أو بمردّ على معنى، لا يردّه هو بعد أن يجيء به ولا ردّ له من جهته، والمردّ مصدر بمعنى: الرد ﴿يصدّعون﴾ يتصدّعون أي يتفرّقون كقوله تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذٍ يتفرّقون﴾[1].

مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾.

﴿فعليه كفره﴾ كلمة جامعة لما لا غاية وراءه من المضارّ؛ لأنّ من كان ضارّه كفره فقد أحاطت به كلّ مضرّة ﴿فلأنفسهم يمهدون﴾ أي: يسوون لأنفسهم ما يسويه لنفسه الذي يمهد فراشه، ويوطئه لئلا يصيبه في مضجعه ما ينبيه عليه وينغص عليه مرقده من نتوء أو قضض أو بعض ما يؤذي الراقد، ويجوز أن يريد، فعلى أنفسهم يشفقون من قولهم في المشفق أم فرشت فأنامت وتقديم الظرف في الموضعين للدلالة على أنّ ضرر الكفر لا يعود إلا على الكافر لا يتعدّاه ومنفعة الإيمان والعمل الصالح ترجع إلى المؤمن لا تتجاوزه.

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾.

﴿ليجزي﴾ متعلق بـ﴿يمهدون﴾ تعليل له ﴿من فضله﴾ مما يتفضل عليهم بعد توفية الواجب من الثواب وهذا يشبه الكناية لأنّ الفضل تبع للثواب فلا يكون إلا بعد حصول ما هو تبع له أو أراد من عطائه وهو ثوابه؛ لأنّ الفضول والفواضل هي الأعطية عند العرب، وتكرير ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ وترك الضمير إلى الصريح لتقرير أنه لا يفلح عنده إلا المؤمن الصالح، وقوله: ﴿إنه لا يحب الكافرين﴾ تقرير بعد تقرير على الطرد والعكس.

وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾.

﴿الرياح﴾ هي الجنوب والشمال والصبا وهي رياح الرحمة، وأما الدبور فريح العذاب ومنه قوله ﷺ: «اللهمّ اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا»[2]، وقد عدّد الأغراض في إرسالها وأنه أرسلها للبشارة بالغيث ولإذاقة الرحمة وهي نزول المطر وحصول الخصب الذي يتبعه والروح الذي مع هبوب الريح وزكاء الأرض قال رسول الله ﷺ: إذا كثرت المؤتفكات زكت الأرض[3] وإزالة العفونة من الهواء وتذرية الحبوب وغير ذلك، ﴿ولتجري الفلك﴾ في البحر عند هبوبها. وإنما زاد ﴿بأمره﴾ لأنّ الريح قد تهب، ولا تكون مؤاتية فلا بدّ من إرساء السفن والاحتيال لحبسها وربما عصفت فأغرقتها ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ يريد تجارة البحر، ولتشكروا نعمة الله فيها.

فإن قُلْتَ: بم يتعلق ولينيقكم! **قُلْتُ:** فيه وجهان أن يكون معطوفًا على مبشرات على المعنى كأنه قيل: ليبشركم ولينيقكم، وأن يتعلق بمحذوف تقديره ولينيقكم وليكون كذا وكذا أرسلناها اختصر الطريق إلى الغرض بأن أدرج تحت نكر الانتصار والنصر نكر الفريقين، وقد أخلى الكلام أوّلاً عن نكرهما وقوله.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾.

﴿وكان حقًا علينا نصر المؤمنين﴾ تعظيم للمؤمنين ورفع من شانهم وتأهيل لكرامة سنية وإظهار لفضل سابقة ومزية حيث جعلهم مستحقين على الله أن ينصرهم مستوجبين عليه أن يظهرهم ويظفرهم، وقد يوقف على حقًا ومعناه وكان الانتقام منهم حقًا ثم يبتدأ علينا نصر المؤمنين وعن النبيّ ﷺ: «ما من امرئ مسلم يردّ عن عرض أخيه إلا كان حقًا على الله أن يردّ عنه نار جهنم يوم القيامة»[4] ثم تلا قوله تعالى: ﴿وكان حقًا علينا نصر المؤمنين﴾.

اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾.

﴿فيبسطه﴾ متصلاً تارة ﴿ويجعله كسفًا﴾ أي قطعًا تارة ﴿فترى الودق يخرج من خلاله﴾ في التارتين جميعًا والمراد بالسماء سمت السماء وشقها كقوله تعالى: ﴿وفرعها في السماء﴾، وبإصابة العباد إصابة بلادهم وأراضيهم.

وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾.

﴿من قبله﴾ من باب التكرير والتوكيد كقوله تعالى: ﴿فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها﴾[5].

ومعنى التوكيد فيه الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول وبعد فاستحكم يأسهم وتمادى إبلاسهم فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك.

---

(1) سورة الروم، الآية: 14.

(2) أخرجه أبو يعلى، (الحديث رقم: 2456).

(3) قال الزيلعي غريب، 3/60.

(4) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في الذب عن عرض المسلم (الحديث رقم: 1931)، وأحمد في المسند 6/449.

(5) سورة الحشر، الآية: 17.

فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾.

قرئ أثر وآثار على الوحدة والجمع وقرأ أبو حيوة وغيره كيف تحيي أي الرحمة ﴿إنّ ذلك﴾ يعني: أنّ ذلك القادر الذي يحيي الأرض بعد موتها هو الذي يحيي الناس بعد موتهم ﴿وهو على كل شيء﴾ من المقدورات قادر وهذا من جملة المقدورات بدليل الإنشاء ﴿فرأوه﴾ فرأوا أثر رحمة الله لأنّ رحمة الله هي الغيث وأثرها النبات ومن قرأ بالجمع رجع الضمير إلى معناه؛ لأنّ معنى آثار الرحمة النبات واسم النبات يقع على القليل والكثير لأنه مصدر سمي به ما ينبت.

وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾.

ولئن هي اللام الموطئة للقسم دخلت على حرف الشرط و ﴿لظلوا﴾ جواب القسم سدّ مسدّ الجوابين أعني جواب القسم وجواب الشرط ومعناه: ليظلن ذمّهم الله تعالى بأنه إذا حبس عنهم القطر قنطوا من رحمته وضربوا أذقانهم على صدورهم مبلسين، فإذا أصابهم برحمته ورزقهم المطر استبشروا وابتهجوا، فإذا أرسل ريحًا فضرب زروعهم بالصفار ضجوا وكفروا بنعمة الله فهم في جميع هذه الأحوال على الصفة المذمومة كان عليهم أن يتوكلوا على الله وفضله، فقنطوا وأن يشكروا نعمته ويحمدوه عليها فلم يزيدوا على الفرح والاستبشار وأن يصبروا على بلائه، فكفروا والريح التي اصفرّ لها النبات يجوز أن تكون حرورًا وحرجفًا، فكلتاهما مما يصوح له النبات ويصبح هشيمًا وقال مصفرًا؛ لأنّ تلك صفرة حادثة وقيل: فرأوا السحاب مصفرًا لأنه إذا كان كذلك لم يمطر. قرئ بفتح الضاد وضمها وهما لغتان والضم أقوى في القراءة لما روى ابن عمر رضي الله عنهما قال: قرأتها على رسول الله ﷺ من ضعف فأقرأني من ضعف[1].

۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾.

وقوله: ﴿خلقكم من ضعف﴾ كقوله: خلق الإنسان من عجل يعني: أن أساس أمركم وما عليه جبلتم وبنيتكم الضعف وخلق الإنسان ضعيفًا أي: ابتدأناكم في أوّل الأمر ضعافًا وذلك حال الطفولة والنشء حتى بلغتم وقت الاحتلام والشبيبة وتلك حال القوّة إلى الاكتهال وبلوغ الأشدّ، ثم رددتم إلى أصل حالكم وهو الضعف بالشيخوخة والهرم وقيل: من ضعف من النطف كقوله تعالى: ﴿من ماء مهين﴾[2] وهذا الترديد في الأحوال المختلفة والتغيير من هيئة إلى هيئة وصفة إلى صفة أظهر دليل وأعدل شاهد على الصانع العليم القادر.

وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾.

﴿الساعة﴾ القيامة سميت بذلك لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا أو لأنها تقع بغتة وبديهة كما تقول: في ساعة لمن تستعجله وجرت علمًا لها كالنجم للثريا والكوكب للزهرة، وأرادوا لبثهم في الدنيا أو في القبور أو فيما بين فناء الدنيا إلى البعث وفي الحديث ما بين فناء الدنيا إلى وقت البعث أربعون قالوا: لا نعلم أهي أربعون سنة أم أربعون ألف سنة[3] وذلك وقت يفنون فيه وينقطع عذابهم، وإنما يقدّرون وقت لبثهم بذلك على وجه استقصارهم أو ينسون أو يكذبون أو يخمنون ﴿كذلك كانوا يؤفكون﴾ أي مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون عن الصدق والتحقيق في الدنيا، وهكذا كانوا يبنون أمرهم على خلاف الحق، أو مثل ذلك الإفك كانوا يؤفكون في الاغترار بما تبين لهم الآن أنه ما كان إلا ساعة.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾.

القائلون هم الملائكة والأنبياء والمؤمنون ﴿في كتاب الله﴾ في اللوح أو في علم الله وقضائه أو فيما كتبه أي أوجبه بحكمته ردّوا ما قالوه وحلفوا عليه وأطلعوهم على الحقيقة، ثم وصلوا ذلك بتقريعهم على إنكار البعث بقولهم ﴿فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾ أنه حق لتفريطكم في طلب الحق واتباعه.

فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾.

فإن قُلْتَ: ما هذه الفاء وما حقيقتها **قُلْتُ:** هي التي في قوله، فقد جئنا خراسانا، وحقيقتها أنها جواب شرط يدل عليه الكلام كأنه قال: إن صح ما قلتم من أن خراسان أقصى ما يراد بنا فقد جئنا خراسان وآن لنا أن نخلص وكذلك إن كنتم منكرين البعث، فهذا يوم البعث أي: فقد تبين بطلان قولكم، وقرأ الحسن يوم البعث بالتحريك ﴿لا ينفع﴾ قرئ بالياء والتاء ﴿يستعتبون﴾ من قولك: استعتبني فلان فأعتبته أي: استرضاني فأرضيته وذلك إذا

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: القراءات، باب: ومن سورة الروم (الحديث رقم: 2936) وأبو داود في كتاب: الحروف والقراءات (الحديث رقم: 3978).

(2) سورة السجدة، الآية: 8.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، سورة الزمر، باب: «ونفخ في الصور فصعق...» (الحديث رقم: 4814)، ومسلم في كتاب: الفتن، باب: ما بين النفختين (الحديث رقم: 141 ـ 1955).

كنت جانيًا عليه، وحقيقة أعتبته أنلت عتبه ألا ترى إلى قوله:

غضبت تميم أن تقتل عامر يوم النسار فاعتبوا بالصيلم

كيف جعلهم غضابًا، ثم قال فاعتبوا أي أزيل غضبهم والغضب في معنى العتب، والمعنى لا يقال لهم: أرضوا ربكم بتوبة وطاعة ومثله قوله تعالى: ولا يخرجون منها ولا هم يستعتبون.

فإن قُلْتَ: كيف جعلوا غير مستعتبين في بعض الآيات وغير معتبين في بعضها وهو قوله: وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين؟ **قُلْتُ:** أمّا كونهم غير مستعتبين فهذا معناه وأما كونهم غير معتبين فمعناه أنهم غير راضين بما هم فيه، فشبهت حالهم بحال قوم جنى عليهم فهم عاتبون على الجاني غير راضين عنه فإن يستعتبوا الله أي يسألوه إزالة ما هم فيه، فما هم من المجابين إلى إزالته **﴿ولقد﴾** وصفنا لهم كل صفة كانها مثل في غرابتها.

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾.

وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشان كصفة المبعوثين يوم القيامة وقصتهم وما يقولون وما يقال لهم وما لا ينفع من اعتذارهم ولا يسمع من استعتابهم، ولكنهم لقسوة قلوبهم ومج أسماعهم حديث الآخرة إذا جئتهم بآية من آيات القرآن قالوا: جئتنا بزور وباطل.

كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾.

ثم قال: مثل ذلك الطبع يطبع الله على قلوب الجهلة ومعنى طبع الله منع الإلطاف التي ينشرح لها الصدور حتى تقبل الحق وإنما يمنعها من علم أنها لا تجدي عليه، ولا تغني عنه كما يمنع الواعظ الموعظة من يتبين له أنّ الموعظة تلغو، ولا تنجع فيه فوقع ذلك كناية عن قسوة قلوبهم وركوب الصدا والرين إياها فكأنه قال: كذلك تقسو وتصدأ قلوب الجهلة حتى يسموا المحقين مبطلين، وهم أعرق خلق الله في تلك الصفة.

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾.

﴿فاصبر﴾ على عداوتهم **﴿إنّ وعد الله﴾** بنصرتك وإظهار دينك على الدين كله **﴿حق﴾** لا بدّ من إنجازه والوفاء به، ولا يحملنك على الخفة والقلق جزعًا مما يقولون ويفعلون فإنهم قوم شاكون ضالون لا يستبدع منهم ذلك وقرئ بتخفيف النون، وقرأ ابن أبي إسحاق ويعقوب ولا يستحقنك أي: لا يفتننك فيملكوك ويكونوا أحق بك من المؤمنين. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الروم كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل ملك سبح الله بين السماء، والأرض وأدرك ما ضيع في يومه وليلته»[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة لقمان مكية

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾.

﴿الكتاب الحكيم﴾ ذي الحكمة أو وصف بصفة الله تعالى على الإسناد المجازي ويجوز أن يكون الأصل الحكيم قائله فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فبانقلابه مرفوعًا بعد الجر استكن في الصفة المشبهة بعد.

هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾.

﴿هدى ورحمة﴾ بالنصب على الحال عن الآيات والعامل فيها ما في تلك من معنى الإشارة وبالرفع على أنه خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف **﴿للمحسنين﴾** للذين يعملون الحسنات وهي التي ذكرها من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيقان بالآخرة ونظيره قول أوس الألمعي:

الذي يظن بك الظن كان قد رأى وقد سمعا

حكى عن الأصمعي أنه سئل عن الألمعي فأنشده ولم يزد أو للذين يعملون جميع ما يحسن من الأعمال ثم خص منهم القائمين بهذه الثلاث بفضل اعتداد بها، اللهو كل باطل ألهى عن الخير وعما يعني.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾.

﴿لهو الحديث﴾ نحو السمر بالأساطير والأحاديث التي لا أصل لها والتحدث بالخرافات والمضاحيك وفضول الكلام، وما لا ينبغي من كان وكان ونحو الغناء وتعلم الموسيقار وما أشبه ذلك وقيل: نزلت في النضر بن الحرث، وكان يتجر إلى فارس فيشتري كتب الأعاجم فيحدث بها قريشًا ويقول: إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود، فأنا أحدثكم بأحاديث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن وقيل: كان يشتري المغنيات فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته، فيقول أطعميه واسقيه وغنيه ويقول: هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام، وأن تقاتل بين يديه وفي حديث النبي ﷺ: «لا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن ولا التجارة فيهنّ ولا أثمانهنّ»[2] وعنه ﷺ: «ما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله عليه شيطانين أحدهما على هذا المنكب والآخر

---

(1) ذكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في التفسير، الزيلعي 3/63.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: البيوع، باب: ما جاء في كراهية بيع= = المغنيات (الحديث رقم: 1282)، وأحمد في المسند 5/264.